أحمد زويل .. كولومبوس العلم التائه في السياسة

أ.د/ أحمد بن حامد الغامدي

2016-08-05

لا خلاف أن الدكتور أحمد زويل يعتبر أبرز شخصية علمية عربية ومسلمة في العصر الحديث ومن واقع رصدي للمجتمع العلمي الدولي تابعت في مواقف متعددة مدى التقدير البالغ للمجتمع العلمي الغربي لأحمد زويل بحيث اصبح أحد أبرز الايقونات العلمية الحديثة. وفي العديد من الكتب العلمية التي تؤرخ لتطور العلم يذكر اكتشاف أحمد زويل (في كيمياء الفمتو ثانية) متلازما لكبرى الاكتشافات والاختراعات العلمية ولهذا أطلق عليه بعضهم بأنه (كولومبوس الاكتشافات العلمية الحديثة) فكما أكتشف كريستوفر كولومبوس الأرض الجديدة أكتشف أحمد زويل آفاق علمية بكر وغير مؤهلة علمياً.

مع ذلك وبكل تجرد لا شك أن أحمد زويل وإن كان قد كسب الكثير بسبب العلم لكنه كاد أن يخسر أغلب رصيده وثقله الاجتماعي بسبب السياسية التي لم يكن فيها ملاح ماهر ولم يصل فيها إلى ارض جديدة فهو وإن كان (كولومبوس في العلم) إلا أنه كان (روبرت سكوت في السياسة) فهو أشبه بالرحالة والمغامر الكابتن روبرت سكوت الذي (تاه) في إحدى رحلاته للقطب الجنوبي وبهذا هلك وأهلك من معه في صحراء السياسة الجليدية. المنصب الرسمي للدكتور أحمد زويل في جامعة كالتك (إحدى أعرق الجامعات الامريكية على الاطلاق) هو أنه أستاذ كرسي ليونس باولنغ وهو كرسي الابحاث المتقدمة جدا في مجال الكيمياء الفيزيائية والذي تم تكريم عالم الكيمياء الامريكي البارز ليونس باولنغ بإطلاق اسمه على هذا الكرسي. صحيح أن أحمد زويل وليونس باولنغ جمعهم العلم فكلا منهما حاصل على جائزة نوبل في الكيمياء لكن الاختلاف في المواقف السياسية بينهما عميق وحاد حيث أن باولنغ حصل كذلك على جائزة نوبل للسلام بينما أحمد زويل وقع في طوام سياسية مؤسفة.

لعل أول (موقف سياسي) صادم أتخذه الدكتور أحمد زويل (الطامح في حينها للعالمية) هو قيامه بزيارة إسرائيل وإلقاء كلمة في الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي وذلك في عام 1993 وبهذا يكون هو ثاني مصري على الاطلاق

(بعد الرئيس السابق أنور السادات) يلقي كلمة في الكنيست الاسرائيلي. وكان ذلك عندما قبل أحمد زويل أحدى الجوائز الاسرائيلية المشهورة وهي جائزة وولف التي تمنح في عدة تخصصات علمية وأدبية وبحكم أنه من تقاليد هذه الجائزة أن يقوم الشخص الفائز بإلقاء كلمة في الكنيست الاسرائيلي وأن يستلم الجائزة من رئيس الحكومة الاسرائيلية. يبدو أن الدكتور أحمد زويل تم استغلاله بمعرفته أو بعدم رضاه في موجة التطبيع مع الكيان الصهيوني أثناء سنوات التسعينات من القرن العشرين مما أثار عليه نقمة وسخط في المجتمع المصري في ذلك الحين. ولهذا عندما حصل زويل على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1999 وكنت وقتها ادرس الدكتوراه في إحدى الجامعات البريطانية تفاجأت من موقف أحد الزملاء الافاضل من طلبة الدكتوراه المصريين الذي لم يكن فخورا بحصول زويل على تلك الجائزة العلمية المرموقة.

صحيح أن شرائح من الطبقة المثقفة والمتعلمة المصرية لم تكن راضية عن (التاريخ القديم) للدكتور أحمد زويل لكن في المقابل سرعان ما تم غفران تلك (الزلة السياسية) للدكتور زويل بل وصلت درجة (المكانة والثقل السياسي) للدكتور زويل في المجتمع المصري حدها الاقصى عام 2005 عندما حصلت انتخابات رئاسية تنافسية لأول مرة في جمهورية مصر العربية بعد أكثر من 24 سنة من حكم الرئيس المصري حسني مبارك شبة المطلق للبلد ولهذا أراد العديد من المهتمين بالسياسة حشد أكبر عدد ممكن من الشخصيات المرموقة في المجتمع المصري لتقوم بمنافسة الرئيس مبارك. وبعد تدشين حملة في الانترنت لتجميع الاف التواقيع الداعمة لأحمد زويل سافرت بعض الوفود إلى الولايات المتحدة لتقنع الدكتور أحمد زويل بالترشح ضد الرئيس مبارك و بالرغم من الاتصالات المتعددة و المحاولات المتنوعة إلا أن الدكتور زويل أعتذر عن الترشيح والانخراط في السياسة. والجدير بالذكر أن أحمد زويل في تلك الفترة لم يرفض تماما المشاركة السياسية وإنما لمح بأن وقتها لم يحن بعد وأنه ربما يتوجه لها لاحقا وفي الوقت المناسب.

وبالطبع لم تكن الفرصة السياسية مناسبة للدكتور أحمد زويل أكثر ملائمة منها بعد ثورة 25 يناير التي غيرت بشكل ملموس الواقع السياسي في مصر ولهذا وبشكل مفاجأ أصر الدكتور أحمد زويل أن يكون في مصر بعد تنحي الرئيس مبارك مباشرة وكما ذكر بنفسه أنه لم يجد رحلة طيران مباشرة لمصر ولهذا اضطر للمرور بأكثر من دولة ليصل مصر مهما كلف الأمر.

يبدوا أن أحمد زويل في تلك الفترة كان يبحث (عن موطئ قدم سياسي ما) ولهذا وجه أحمد زويل في عام 2011 بعد ايام من تنحية مبارك رسالة صوتية للشعب المصري حرص بنفسه أن يتصل بكبرى القنوات لفضائية (ومنها قناة العربية !!) لضمان وصول صوته من خلالها وقد دعى زويل في هذه الرسالة لأمر غير مسبوق في نطاق السياسية العربية حيث طالب (بتشكيل لجنة حكماء لإدارة أمور البلاد في مصر). وبعد أن كان أحمد زويل اثناء الانتخابات الرئاسية

عامي 2005 و2010 وقت الحكم الاستبدادي للرئيس حسني مبارك يصرح بأنه لا طموح سياسي له وأنه يريد أن يخدم مصر كعالم فقط، إذا به بعد اسبوعين من سقوط حسني مبارك يصرح في ندوة علمية إعلامية بفندق الماريوت في القاهرة (بأن المسؤولية الوطنية الملقاة على عاتقه جعلته يدخل في مرحلة التفكير في الترشح لانتخابات الرئاسة المقبلة).

وكما هو معلوم لم يترشح الدكتور أحمد زويل في الانتخابات المصرية الرئاسية عام 2012 لأنه وبعد سنة ونصف من حكم المجلس العسكري (وتوليه زمام أمور البلاد) لا شك ان أحمد زويل قد فهم ابعاد اللعبة السياسية وأنه لم يتغير منها شيء بخصوص تجذر الدولة العميقة وعدم قبولها بتغيير طريقة واسلوب الحكم القديم الاستبدادي. ولهذا نجد الدكتور أحمد زويل يجامل الحكم العسكري الانقلابي في مصر كما كان يجامل الحكم الاستبدادي في زمن المخلوع حسني مبارك. ولهذا شارك أحمد زويل في الصفوف الاولى في حفل تنصيب الرئيس العسكري السيسي كما شارك في حفل تدشين تفريعة قناة السويس وغيرها من اجتماعات السيسي مع المثقفين والاعلاميين. و على كل حال لعله من تسطيح الأمور ان يطلب أي شخص من الدكتور أحمد زويل أن يكون (معارض سياسي) لكن كان العشم أن يكون متسق ومتوازن مع نفسه فإذا لم يكن متاح الوقوف في وجه الظلم فلا اقل من الحذر من الوقوع في خطيئة تأييد الباطل. في عام 2004 شارك الدكتور أحمد زويل 62 عالم أمريكي (بينهم 20 عالم من الحاصلين على جائزة نوبل) في توجيه رسالة اتهام لإدارة الرئيس الامريكي الاسبق جورج بوش بأنها تعمدت الاضرار بالمعارف العلمية في مقابل تحقيق أهداف سياسية بينما لم نسمع أي صوت اعتراضي للدكتور زويل حيال فضيحة جهاز الكفتة الطبي لعلاج الايدز الذي تبنته الدولة المصرية بقضها وقضيضها.

وفي عام 2003 قام 41 عالم امريكي جميعهم من الحاصلين على جائزة نوبل وكان من ضمنهم الدكتور أحمد زويل بتوقيع عريضة احتجاجية ضد الحرب الامريكية (المحتملة) على العراق حيث أنه في ذلك الوقت لم تكن الحرب قد بدأت فعلا. وبعد أن كان الدكتور زويل يعترض على ويلات الحرب (المحتملة) لم يصدر له أي اعتراض من أي نوع على الاستبداد والقتل والقمع والفساد والافساد الذي نتج من حكم العسكر الانقلابي. ولنختم الان بذكر المفارقة جراء عملية المقارنة بين المواقف السياسية للدكتور أحمد زويل وبين عالم الكيمياء ليونس باولنغ الذي كان أحمد زويل يشغل منصب استاذ كرسي الابحاث المسمى باسم ذلك العالم. بلا منازع يعتبر ليونس باولنغ أهم وأعظم عالم كيميائي أمريكي في القرن العشرين ولهذا حصل على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1954 ولكنه ايضا حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1962 وذلك نظير جهوده الداعية لمنع وحذر إجراء التجارب النووية. ولعله من الطريف ذكر

حادثة غريبة حصلت للعالم الكيميائي ليونس باولنغ تدل على ثباته على مبادئه السياسية وقناعاته الفكرية وعدم مجاملته للسلطة الحاكمة.

فقبل حصول باولنغ على جائزة نوبل للسلام كان الرئيس الامريكي جون كيندي قد قرر أن تستمر بلاده في إجراء التجارب النووية ولهذا قام باولنغ بإرسال برقية شديدة اللهجة يستنكر على الرئيس الامريكي هذا الموقف. وبعد هذه الحادثة بفترة قام الرئيس كينيدي بدعوة جميع العلماء الذين حصلوا على جوائز نوبل لحفلة عشاء تكريمية في البيت الابيض (وهي عادة بروتوكولية قديمة ما زالت سارية حتى الان) و طبعا كان من ضمن الحضور الكيميائي المشاغب لوينس باولنغ لأنه كان وقتها حاصل على جائزة نوبل في الكيمياء. الطريف في الامر انه قبل الحفلة التكريمية مباشرة قام لوينس باولنغ و زوجته بالمشاركة في مظاهرة احتجاجية امام البيت الابيض ضد التجارب النووية ثم بعد ذلك ترك و غادر الزوجان خط تنظيم المظاهرة و دخلا إلى البيت الابيض لحضور حفلة العشاء بل ان باولنغ في تلك الامسية رقص مع زوجة الرئيس الامريكي.

من المحزن أن الدكتور أحمد زويل لم يكن يحسن الرقص السياسي مع السلطة الحاكمة والمسيطرة بل أنه اكتفى بدور الطبال الذي ليس فقط يحاول ان يطرب السلطة ولكنه ايضا قام بدور المدافع والمحامي والملمع للسلطة بدليل نشره لتلك المقالة الصحفية مقاله المشهورة التي نشرها عام 2014 في جريدة لوس أنجلوس الامريكية والتي دافع فيها أحمد زويل بشكل صريح ومباشر عن الجنرال السيسي ووصفه بأنه أعطى أمل لمصر وانه أتخذ خطوات جادة تجاه الاصلاح الاقتصادي وهنا تكمن المفارقة الصارخة أن العالم والباحث المدقق والحريص أستطاع أن يتتبع اسرع التفاعلات الكيميائية في الطبيعة في جزء من الفيمتو ثانية ولكن (مجاملاته السياسية) حالت دون أن يشاهد أحد اسوء وأحمق العروض السياسية في تاريخ مصر المعاصر.

بقي أن نقول أن عالم الكيمياء الامريكي كارل دجيراسي استاذ علم الكيمياء العضوية بجامعة ستانفورد الامريكية العريقة والمشهور باختراعه لحبوب منع الحمل كان في نفس الوقت له اهتمامات أدبية حيث نشر عدد من المسرحيات ودواوين الشعر. من ضمن أعماله الادبية رواية (الفقيد ماركس Marx, Deceased) والتي تدور أحداثها عن أديب مشهور يرغب أن يعرف كيف ستكون نظرة الأجيال القادمة عنه فهل سوف يعتبر أديب عابر أم روائي من الطراز الأول الذي يخلده الزمن. أعتقد أننا سوف نقع في حيرة مشابه مع الدكتور أحمد زويل فحسب حالة النقاش والجدال التي اجتاحت مواقع التواصل الاجتماعي خلال الايام الماضية بعد وفاته ما بين مادح وقادح أعتقد أن عنوان الرواية تلك كان الاجدر بها بدل ان تكون الفقيد ماركس ان تصبح (الفقيد زويل).

بريد الكاتب الإلكتروني: ahalgamdy@gmail.com